

د. سعيد توفيق

حرب غزة وحالة الاكتئاب العام

05 ديسمبر 2023 جريدة عمان

الحرب على غزة التي تجري في أرض تنتمي إلى العالم الإسلامي بوجه عام وإلى عالمنا العربي بوجه خاص، هي حرب تطغى على أي اهتمام آخر، وبشاعتها تشل تفكيرنا في أي شيء آخر وتصيبنا بحالة من الاكتئاب العام، لا باعتبارنا عربًا نجزع فحسب من المآسي التي تصيب إخواننا في فلسطين، وإنما نجزع أيضًا من افتقاد هذا العالم للإنسانية، ومن بشاعة عدوان بعض البشر على غيرهم من البشر.

ما يجري في غزة ليس حربًا على فصائل المقاومة الفلسطينية، وتحديدًا حماس؛ أعني أنها ليست حربًا يشنها جيش إسرائيل ضد جنود أو رجال مقاومة ينتمون إلى حماس، وإنما هي حرب يشنها العدوان الإسرائيلي على حماس، وعلى شعب فلسطين المؤيد للمقاومة. ولكن الحرب لها قواعد وأخلاقيات تحكمها المواثيق الدولية التي باتت حبرًا على ورق في عالم ظالم لا تفعل فيه المؤسسات والقوى الدولية شيئًا سوى أن تذكرنا بها. ومن هذه القواعد ما ينص على عدم التعرض للمدنيين بحيث تكون الحرب حربًا بين الجيوش، ومنها عدم التعرض للمؤسسات والمنشآت المدنية، ومنها ما يتعلق باستخدام القوة المتوازنة في الرد على العدوان، ومنها أيضًا ما يتعلق بحسن معاملة الأسرى، وغير ذلك كثير مما تنص عليه المواثيق الدولية.

ولكن ما جرى ولا يزال يجري في حرب إسرائيل الدائرة الآن هي حرب على الشعب الفلسطيني نفسه بغرض تصفيته؛ ومن ثم تصفية القضية الفلسطينية نفسها، والشواهد على ذلك حقائق عديدة: أهمها ذلك العدوان الوحشي على المدنيين والمنشآت المدنية بما في ذلك المستشفيات والمدارس ودور العبادة والصحفيين، ولم ينج من ذلك النساء والأطفال الصغار والرضع الذين تنهدم بيوتهم على رؤوسهم في أثناء نومهم، حتى بلغ أعداد هؤلاء آلافًا عديدة تقترب من عشرة آلاف امرأة وطفل، وتلك حالة من العدوان الذي لا نظير له في جرائم الحروب في العالم. إنها حالة من الإبادة الجماعية تهدف إلى تهجير شعب فلسطين من أرضهم إلى أراضي بلدان مجاورة، خاصة أرض سيناء في مصر. ذلك هو المخطط العدواني الوحشي الإسرائيلي.

حقًّا إن إسرائيل ليست هي الدولة الوحيدة التي ترتكب الإبادة الجماعية، فقد ارتكبت الولايات المتحدة الأمريكية مثل هذه الجرائم في حربها على العديد من الدول مثل فيتنام على سبيل المثال، ومن قبل ذلك فإنها قامت في الأصل على إبادة شعب الهنود الحمر في أمريكا، ولكننا لا ينبغي أن ننسى أن إبادة شعب الهنود الحمر كان بالبنادق، ولكن الإبادة في عصرنا الراهن تحدث من خلال أسلحة فتاكة لا تُبقي ولا تذر. وهذا بالضبط هو ما تفعله إسرائيل من أجل تصفية شعب فلسطين، ليس فحسب من خلال هدم بيوت المواطنين على رؤوسهم، وإنما أيضًا من خلال إلقاء أطنان من القنابل الفتاكة على بيوتهم وأماكن وجودهم بحجة تصفية رجال المقاومة، وكأن رجال المقاومة يسكنون كل بيت في فلسطين! بل إنها تستخدم أسلحة فتاكة محظورة دوليًّا، ومنها تلك القنابل التي تحتوي على الفسفور الأبيض، وهي مادة إن لم تقتل فإنها تحرق وتشوه الأجساد البشرية؛ وهذا ما شهده الأطباء في فلسطين وغيرهم الأطباء الأجانب، وهو ما شاهدناه أيضًا على شاشات التلفاز. وعلى هذا يمكن القول إن ما جرى ويجري في غزة العربية هو محرقة بالمعنى الحرفي؛ وبالتالي فإنها محرقة تفوق ما جرى لليهود أنفسهم على يد هتلر، وبذلك فإننا يمكن أن نتحدث عن «المحرقة الفلسطينية» التي يرتكبها من عانوا هم أنفسهم من المحرقة التي يتاجرون بها باسم «الهولوكوست». وهكذا فإننا نجد أن مَن وقع عليه الظلم يومًا ما يمارس الظلم والعدوان بشكل أكثر بشاعة من الظلم الذي عانى منه!

حقًّا إن كثيرًا من شعوب العالم قد انتفضت في مواجهة هذا الظلم والعدوان غير المسبوق، مثلما انتفض أفراد مشاهير وشخصيات سياسية عامة حول العالم، وهو ما شكل حالة ضاغطة غير مسبوقة على مواقف السياسات الدولية لدى الغرب المنحاز لدولة إسرائيل، ولكن هذه المواقف لا تزال عاجزة عن ردع العدوان الإسرائيلي حتى الوقت الراهن، وإن شكلت قوة ضاغطة عليه. يردد بعض الداعمين للعدوان كالببغاوات أن حماس هي من بدأت العدوان، ولكن لا أحد منهم يسأل أو يتساءل عن أسباب وجذور هذا العدوان الذي هو في حقيقة الأمر دفاع عن أرض ومقدسات شعب ما في مواجهة مغتصب الأرض والمعتدي بشكل دائم على وجوده طيلة خمسة وسبعين عامًا.

الخلاصة أننا إزاء عالم ظالم لا يعبأ بالإنسانية، وينصر الظالم على المظلوم، ويرى أن المظلوم لا يحق له الدفاع عن أرضه إزاء المحتل الذي يغتصب أرضه. وأنا لا أعني بالعالم هنا الشعوب أو الناس المغلوبة على أمرها، وإنما أعني القوى العالمية التي تحكم العالم، التي لا يشغلها سوى تحقيق مصالحها، وهي القوى التي تتمثل في الغرب بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، أو على الأقل الغرب المنصاع لسياساتها العدوانية حول العالم. وربما يكون هذا هو السبب في حالة الاكتئاب العميق الذي يعتري كل مَن كان في نفسه ذرة من الإنسانية في عالم يفتقر إلى الإنسانية والعدالة. هذا الاكتئاب العام ليس اكتئابًا بسبب حالة أو ظروف شخصية، وإنما هو اكتئاب يرجع إلى وضع العالم الراهن الذي يعيش فيه الإنسان. وإذا كان حال كل إنسان لديه ضمير في هذا العالم، فما بالك بحال الشعب الفلسطيني نفسه الذي سيولِّد هذا العدوان البشع في نفسه- وخاصة لدى الأطفال والأجيال القادمة- حالة من الكراهية والبغض لكل ما هو إسرائيلي؛ ولهذا فإن إسرائيل لن تعيش أبدًا في سلام، وهذا ما لا تفهمه المكابرة الإسرائيلية التي لا تعرف سوى العنف والوحشية إزاء الآخر المختلف في الدين والعقيدة، حتى إن كان هذا الآخر هو صاحب الحق.